



الفصل الثالث

أصغر اللاعبين

ظهيرة يوم صيفي من عام 1992م



يبدو ملعب غراندولي أجرد تقريباً، يكسوه كثير من التراب، وقليل من المساحات الخضراء على الخطوط الجانبية. القوائم في حالٍ يرثى لها، شأنها شأن السياج، وشأن المبنى الذي يحوي غرف الغيار والحمامات. لا يبدو الحيّ بأكمله بحالٍ أفضل؛ محطات مؤقتة لغسيل السيارات تنتشر عند تقاطعات جادة غواتيريز، بائعو إطارات مستعملة، لوحات تقول: «هنا نشترى الحديد»؛ أي محالٍ خردة، حتى إنَّ هناك قطعة من الكرتون تُعلن عن توفير خدمة تنظيف الكلاب. نشاهد في الخلفية أبراج البناء المشهورة التي تبدو مهجورة مع أنَّها مأهولة؛ بيوت صغيرة ذات سقوف منخفضة افتقدت التألُّق الذي كانت عليه في الماضي، نباتات تنمو بين شقوق الأسفلت، نفايات تصطلي بحرارة الشمس، رجال وعجائز عاطلون، فتیان يركبون درّاجات هوائية صغيرة لا تناسبهم. يقول أكبر العجائز سنّاً: «لقد تغيّر الناس في هذه الأنحاء»، ثمّ يضيف: «أصبح من المخيف التجوّل هنا ليلاً؛ لقد انتقل الأشرار إلى هنا».

الساعة الثالثة عصرًا، لا يوجد أحد في المكان. ملعب كرة القدم خالٍ. لقد غادر الفتیان الذين يرتادون المدارس المجاورة، ثمّ يأتون لممارسة





هيسي

الرياضة في مركز أبانديرادو ماريانو غراندولي للتربية البدنية (سُمي بهذا الاسم تيمُّناً بأحد متطوعي حرب عام 1865م الذين ضَحَّوا بحياتهم في سبيل الوطن). ولعبو كرة القدم لا يأتون حتى الساعة الخامسة.

الشخص الوحيد الموجود في المكان هو معلِّم، يرتدي قميصاً أبيض، وبزّة رياضية زرقاء. يدلُّنا على بيت يبعدُ نحو 150 متراً، هناك يقطن السيد أباريشيو؛ أول مدربٍ لليونيل ميسي.

يفتح أباريشيو الباب بيديه المبلَّتين، فهو يُحضّر الطعام لزوجته الكفيفة كلوديا. ومع ذلك، فهو يدعو ضيفه إلى الدخول. أربعة كراسي، كلب أبيض ضخّم، رائحة نتنة تفوح في صالة ضيقة يتوسطها تلفاز كبير. يبلغ سلفادور ريكاردو أباريشيو (ينادونه أبا) الثامنة والسبعين من العمر، لديه من الأبناء أربعة، ومن الأحفاد ثمانية، ومن أبناء الأحفاد أربعة؛ وجهه أعياه الزمن، وشاربه ذاو، جسده ملتوٍ كسلك شائك، وصوته مرتجف كحال يديه.

عمل أباريشيو طوال حياته في سكّة الحديد. وقد ارتدى في شبابه القميص رقم 4 عندما لعب لنادي فورتن، ودرّب الفتيان قبل أكثر من ثلاثين عاماً على ملعب غراندولي الذي يبلغ طوله 40 متراً، وعرضه 5,7 أمتار.

تدرّب على يديه المئات من الأطفال، بمنّ فيهم رودريغو، وماتياس. كان الأخ الأكبر سريعاً قوياً يلعب في مركز الوسط المتقدم. أمّا الآخر فكان يلعب عند خط الدفاع. كانت الجدّة سيليا تصطحبهما إلى التدريب كلّ يوم ثلاثاء وخميس. وفي ظهيرة يوم صيفي، اصطحبت ليو معها.

«كنت في حاجة إلى لاعب لإكمال فريق مواليد عام 1986م. لقد انتظرتُ اللاعب الأخير حاملاً قميصه بيديّ، في الوقت الذي أخذ فيه اللاعبون يقومون بعمليات الإحماء. لكنّ اللاعب لم يأت. وفي هذه الأثناء، كان هناك طفل صغير





يركل الكرة على المدرجات. لقد كان الوقت يمرّ، وقلت لنفسِي: اللعنة... لا أعرف إن كان يجيد اللعب. ولكن... أخيرًا، توجّهت صوب الجدة التي بدا عليها الاهتمام اللافت بكرة القدم، قائلًا لها: دعيه يُجربُ حظّه. كانت تودّ رؤيته وهو يلعب. وكثيرًا ما طلبت إليّ - من قبل - أن أمنحه فرصةً للعب. وكم مرّة التقيتها، فأخذت تُعدّد لي المواهب التي يمتلكها هذا الفتى الصغير. كانت أمّه أو خالته، لا أذكر تمامًا. لم تكن ترغب أن يشارك الآخرين في اللعب، وكانت تقول: إنّه صغير جدًّا، والآخرين ضخام. كنْتُ أطمئنّها قائلًا: سأقف هنا. وفي حال هاجموه، فسأوقف اللعب، وأسحبه من الملعب».

وهكذا تجري أحداث القصة التي يرويها السيد أباريشيو، لكنّ عائلة ميسي - كوشيتيني تصف الأحداث بأسلوب مختلف. «كانت سيليا هي مَنْ أرغمت أبا على إشراكه عندما لم يأتِ ذلك اللاعب. لم يُعجب المدرب بتلك الفكرة؛ لأنّ (ليو) كان صغير الحجم. لكنّ الجدة أصرتْ قائلة: أشركه، وسترى مدى مهارته. حسنًا، أجاب أبا، لكنّي سأضعه قرب الخط الجانبي، فإذا بدأ البكاء، فبإمكانك إخراجه من الملعب بنفسك».

لا يوجد خلاف على ما جرى لاحقًا من أحداث. والآن، لنعد إلى رواية المدرب العجوز: «حسنًا... أعطيته القميص، فارتداه. ثمّ جاءته الكرة أول مرّة، نظر إليها... من دون أن يُحرّك ساكنًا».

نهض الدون أبا، كما يُلقّب هنا، عن كرسيّه، ثمّ أخذ يُقلّد أصغر أفراد عائلة ميسي في نظرات الدهشة التي اعتلت مُخيّاه، ثمّ جلس مرّة أخرى قائلًا: «إنّه أشول، لذلك لم يتمكّن من الوصول إلى الكرة. عندما مرّت الكرة بقدمه اليسرى، تشبّث بها، ثمّ تخطّى أحد اللاعبين، فأخر، فأخر. صرختُ به قائلًا: اركلها، اركلها. لقد كان خائفًا من أن يؤذيه أحدهم، لكنّه واصل شقّ طريقه.





لا أذكر ما إذا سجّل هدفًا حينها أم لا. ولكن، لم يسبق لي أن رأيت شيئًا مثل ذلك. قلت لنفسي: هذا لاعب أصيل، لن أدعه يغادر أرض الملعب أبدًا. لم أقم بتبديله قطّ».

يختفي السيد أباريشيو في غرفة أخرى، ثم يعود حاملًا كيسًا بلاستيكيًا، ويأخذ يُقَلِّب في شريط ذكرياته. وأخيرًا، يجد الصورة التي يبحث عنها؛ ملعب أخضر، فريق يضم مجموعة من الفتيان الذين يرتدون قمصانًا حمراء، شخص يبدو أنّه أباريشيو أيام الشباب، وأصغر الجميع سنًا. لقد كان يرتدي سروالًا أبيض يصل إلى الإبطين تقريبًا، وقميصًا كبيرًا جدًّا، واعتلت قسّامات وجهه ملامح الجدّ والصرامة، وكانت ساقاه منفرجتين. إنّهُ ليونيل؛ يبدو كطائر صغير، كبرغوث، مثلما كان يسميه أخوه رودريغو.

«كان من مواليد عام 1987 م، لكنّه لعب مع فريق مواليد عام 1986 م. كان أصغر اللاعبين سنًا وحجمًا، لكنّه برز من بين الجميع. لقد عاقبوه من دون رحمة. ومع ذلك، فقد كان لاعبًا مميّزًا، يمتلك موهبة خيالية. لقد وُلِد، وهو يعرف كيف يلعب الكرة. كان الناس يحتشدون لرؤيته كلّما كنّا نلعب. لم يكن يعترض طريقه أيّ شيء عندما يستحوذ على الكرة. لقد فعل أشياء لا تُصدّق، ولم يتمكّن أحد من إيقافه. كان يُسجّل أربعة أهداف أو خمسة كلّ مباراة. وقد أحرز يومًا هدفًا في مرمى فريق أمانيسير لا نشاهد مثله إلّا في الإعلانات. إنَّني أتذكّره جيدًا؛ لقد تخطّى الجميع، بمنّ فيهم حارس المرمى. كيف كان أسلوبه في اللعب؟ لقد كان سيّد الملعب، لا يستطيع أحد مجاراته في اللعب، ما أبرز صفاته؟ كان فتى جادًا، يقف دائمًا بهدوء إلى جانب جدّته. لم يكن يشتكي قطّ. كان يبكي أحيانًا إذا تعرّض للأذى، لكنّه كان يقف ويواصل اللعب بعدها. لذا، فأنا أجادل الجميع، وأدافع عنه عندما يُقال: إنّهُ يحبّ اللعب منفردًا، أو إنّهُ لاعب عادي، أو إنّهُ جشع».





تنادي عليه زوجته من الغرفة المجاورة، فيختفي السيد أباريشيو هُنيهة، ثمَّ يعود ليكمل حديث الذكريات.

يذكر شريط فيديو أضاعه، يحوي كثيرًا من المباريات المثيرة التي خاضها الفتى. «كنت أعرضه على الفتية؛ لكي يتعلّموا ما يمكن القيام به بالكرة». ثمَّ أخذ يتذكّر أول مرة عاد فيها ليو من إسبانيا، وزيارته له: «لقد ساد جوٌّ من الدهشة والإثارة عندما شاهدني. وكنت قد ذهبت صباحًا، ثمَّ عدت في الواحدة ليلاً. أمضينا الوقت نتحدث عن حال كرة القدم في إسبانيا». يذكر أيضًا حفل التكريم الذي أقامه الحيّ لليونيل. فقد أرادوا منحه درعًا في ملعب غراندولي، لكنّ ليو لم يتمكّن من الحضور. ثمَّ اتصل لاحقًا ليقول لهم: «أشكركم، ربّما في وقت آخر».

لا ينتاب المدرّب العجوز أيّ شعور بالمرارة في أثناء حديثه عن ليو؛ فكلّامه يدلّ على عظم الحبّ الذي يَكُنّه للفتى الصغير الذي درّبه سنوات.

«أجهشت بالبكاء عندما شاهدت - بالتلفاز - هدفه الأول وهو يلعب مع فريق برشلونة. سألتني ابنتي جينوفيفا التي كانت في الغرفة المجاورة: ما الخطب يا أبت؟ قلت: لا شيء. إنّها الفرحة الغامرة التي تسلّلت إلى مكنونات نفسي، وجعلتني أشعر بنشوة الانتصار».

يُخرج أباريشيو جوهرة أخرى من كيسه البلاستيكي. إنّها صورة أخرى للفتى الأشقر الصغير، وهو يرتدي قميصًا كبيرًا جدًّا، وقد بدت قدماه قصيرتين؛ ويحمل في يده كأسًا، لقد كان ذلك أول كأس يفوز به في حياته. كان حجم الكأس يُماثل حجمه تقريبًا.

لم يبلغ ليو الخامسة من العمر بعد، لكنّه بدأ - مع ذلك - يشعر بحلاوة الأهداف، ولذّة الانتصارات على ملعب غراندولي. ثمَّ يحالفه الحظ في العام





المقبل؛ بأن أصبح والده هو المدرب. فقد قبل خورخي عرضاً من مدير النادي لتدريب أعضاء فريق مواليد عام 1987م، الذين لعبوا أمام فريق ألفي، غريمهم القادم من طرف المدينة الآخر؛ إنهم يفوزون دائماً.

يقول خورخي ميسي، بفخر نابع من كونه أباً أكثر منه مدرباً: «إنهم يُحرزون كل شيء؛ البطولة، والدورات، والمباريات الودية».

نبتعد قليلاً عن كرة القدم للحديث عن المدرسة. فقد اعتاد ليو الذهاب إلى المدرسة رقم 66، وتُدعى مدرسة لاس هيراس الحكومية، وعنوانها 4800 شارع بوينوس آيرس. وكان يصطحبه إلى هناك والدته سيليا، أو خالته مارسيليا، أو الجارة سيلفيا إريانو، والدّة سنتيا، صديقة ليو المقربة. لقد كانوا يذهبون مشياً على الأقدام، شاقّين طريقهم عبر الحقول الواسعة، أو من حول أطراف ملاعب كرة القدم الموجودة في التكنات العسكرية التابعة لكتيبة الاتصالات رقم 121. ولم تكن تستغرق هذه الرحلة أكثر من عشر دقائق.

واليوم، ولدى الاقتراب من البوابة الرئيسة، أمكننا مشاهدة أصغر طلبة الصفوف سنّاً، وهم منشغلون بالرسم. يرتدي اثنان منهم قميص ميسي، في حين يلعب بعض الفتية في سرادق مغطى كبير، مرتدين أطقماً بيضاء، وهم في قمة التركيز. وعلى الرغم من وجود قوائم للمرمى، إلا أنه كان ينقصهم كرة للعب. وقد استعاضوا عنها بكومة من الأوراق البنية التي لُفّت معاً بلاصق.

كان هؤلاء الفتية يتحرّكون على نحوٍ يُشعر الناظر بالدوار، غير آبهين بالحصى المؤذي. وقد امتازوا بمهارة المراوغة، وسرعة الالتفاف، والمحاورة. وما نحن نشاهد ابن خالة ليو، برونو بيانكوتشي من بين اللاعبين؛ وقد تصبّب العرق منه بغزارة، ومال وجهه إلى الحمرّة من فرط المجهود والتعب، وتدلّى شعره الأسود على مُحيّاه، وزيّن شحمة أذنه بقرط أبيض ذي خطوط وردية. ثم





ما لبث أن أخبرنا رفاقه بأنه الأفضل. وقد سبق للصحف أن كتبت الكثير من المقالات في مدحه، والإشادة به، وتوقع أنه سيكون خليفة ليو. أما مدرّبوه فقد أجمعوا على مهارته في اللعب، وعلى موهبته التي تُضارع موهبة ابن خالته، فضلاً عن اتصافه بالخجل مثله. وكان يُصرّح دائماً بأنه يحسد ابن خالته على روح المبادرة التي يمتلكها، وعلى قدرته على تسجيل الأهداف. يلعب برونوفي خط الهجوم أيضاً، وهو يودّ الانضمام إلى نادي برشلونة في يوم ما.

تحلّق عدد من الأطفال حولنا، وكلّ يودّ الإدلاء برأيه بشأن الفتى الذي كان يرتاد مدرستهم حتى وقت قريب. بالنسبة إلى بابلو ذي الأحد عشر ربيعاً فالأمر واضح تماماً: «لديه قدرة ليكون الأفضل في العالم. إنه أفضل حتى من مارادونا. أكثر ما يعجبني فيه هو سرعته، إنه خارق». أما أوغستين ذو التسعة أعوام، فقد راوده شعور بالقلق، وهو قلق يُورِّق حال الكثير من الأرجنتينيين: «بدأ مارادونا حياته مع نادي أرجنتينوس جونيورز. أما ميسي فمع البارسا». بعيد جداً عن هنا من دون شك.

وفي المقابل، فإنّ كثيراً من الفتيات اللاتي كنّ يشعرن بالخجل أكثر قرّرن الانضمام إلى التجمّع. وقد كشفت آراؤهنّ عن كثير من التضارب والتعارض؛ فبعضهنّ يعتقدنّ أنّه وسيم، في حين تعتقد أخريات أنّه قصير جداً.

حان الآن وقت الاستراحة، فأخذ التلاميذ الصغار يطاردون بعضهم بعضاً حول شجرة معمرة. ويوماً ما، كان ليوراوغ حول جذع هذه الشجرة الضخم في أثناء مطاردة الكرات المصنوعة من الوزق والبلاستيك. إنّ أجمل الذكريات بالنسبة إليه - في تلك السنوات - كانت لعب كرة القدم بأيّ أداة أو شيء متوافر آنذاك. وقد صرّح مراراً أنّه لم يكن متعلّقاً بالدراسة.

أكّدت هذه المعلومة مونيكا دومينا؛ المعلمة التي درّسته من الصف الأول





حيسي

إلى الثالث، بقولها: «لم يكن ليو مجتهداً في الدراسة، لكنّ مستواه كان مقبولاً. وقد واجه صعوبة في القراءة بداية الأمر. لذا، نصحت والدته بأخذه إلى اختصاصي نطق. لقد تمكّن من التحسّن شيئاً فشيئاً في بقية المواد، مع أنّه لم يُحقّق نتائج متقدّمة. كان ليو طفلاً هادئاً لطيفاً خجولاً، ولم يسبق لي أن شاهدت طالباً خجولاً مثله طوال حياتي المهنية. لقد كان مُقلّاً في حديثه، لا يتكلّم إلّا إذا خاطبه أحدهم، وكان يجلس بهدوء في مقعده آخر غرفة الصف. وفي المقابل، كان أكبر الطلبة سنّاً يتنافسون معه على المشاركة في البطولات التي تشارك فيها جميع المدارس في مدينة روزاريو. لقد كان ماهراً بطبيعة الحال، وتمكّن من نيل كثير من الكؤوس والميداليات، لكنني لم أسمع يوماً يتفاخر بطريقة لعبه أو أهدافه».

